Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فنقل عن على بن أبى طالب –رضى الله عنه– قوله: "أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرج". ونقل عن يزيد بن المهلَّب قوله: "والهفاهُ على طليّة بمائة ألف وفَرْج فى جبهة الأسد".(١) وعن عمر بن الخطاب –رضى الله عنه– قوله "استغزروا الدموع بالتذكُّر" وعن عيسى بن عمر قوله: سمعنا الحسن يقول: "اقْدَعُوا هذه النفوس فإنها طُلَعَةٌ واعصوها، فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شر غاية. وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور".(٢)

تلك بعض مقولات غير مسجوعة صدّر بها الجاحظ هذا الباب المضطلع برصد صور من الأسجاع، وبرغم ذلك، فليس بإمكان الدارس أن يتصوّره جاهلاً بما للسجع من أساس، فمن اللافت أن الجاحظ كان إذا وصل إلى السجع الفعلى يقول: "ومن الأسجاع: ..." ثم يذكر نماذج مسجوعة فعلاً، ويستمر إلى أن يخرج مرة أخرى إلى الترسُّل. وهنا يُسجِّل البحث موقفاً منهجيّاً لا يمكن إغفاله؛ إذ من المعلوم أن الجاحظ رجلٌ استطرادى، يتحدث فى أمر، فإذا عَنّ له غيره تناوله، ثم عاد إلى ما كان فيه، غير أنه مع العلم بذلك الموقف المنهجى، فإن المقولات المشار إليها ما تزال تطرح مشاكل، فإذا كان الجاحظ واعيا بما يقوله فإنه ينبغى البحث عن الأسباب التى دفعته إلى أن يُدْخل فى هذا الباب أقوالاً غير مسجوعة، فليس من قبيل الصدفة أن تجمَع هذه المقولات بوجه خاص، ويُصدَّر بها هذا الباب الذى وُضِع له عنوان محدد، ولا يصح أن نتصوّر أن الجاحظ قد رصد هذه النماذج من لا شىء.

إن هناك أكثر من استنتاج يفرض نفسه عند قراءة النماذج غير المسجوعة التى أوردها؛ فإما أن يكون ذلك خلطاً من النُسّاخ، استقر وجرى عليه المحققون، وإما أن يكون الجاحظ قد فهم السجع بخصوص هذه النصوص على أنه كلام يتحقق فيه الاستواء، وأنه يشبه بعضه بعضا، وهذا معنى من معانى السجع أوردها البحث فيما سبق، فكأن الجاحظ كان يتحرك فى إطار ذاكرة تراثية للنص السجعى، وينطلق من تصور لهذا الفن تكوّن بشكل عفوى عبر زمن مديد من الممارسة، حيث ترسَّخ الاستواء والتشابه تاريخيا فى الكلام المسجوع، وأحكم

---

(١) الطَلَبَة: الفرس أو الكأس المطليّة.

(٢) اقدعوا: كفوا. طُلعة: أى تطلُّع إلى كل شىء. حادثوا: أى أجلوا واشحذوا، والدثور: الدروس، يقال دثر أثر فلان أى ذهب، كما يقال درس وعفا.